



الى حياة رومية

٢- في منزل الوحي

بقلم الدكتور محمد حسين هيكل بك
للأديب محمد فهمي عبد اللطيف

إلى حياة روحية تسمو بالنفس ، وتضئ القلب ، وتهذب
المواطف ، وتحد من النزعات والأهواء ، وتصل أسبابنا بالسما ..
هذا هو ما يدعو إليه هيكل ويحبه ، بعد أن شهد ما شهد من
مظاهر الحياة الروحية في آثار النبي العربي ، ورأى كيف يفعل
الإيمان الأعاجيب في مواطن لولاه ما كان للإنسان بها طاقة ؛
ويعجب هيكل من الذين ينكرون الحياة الروحية وينكبون
طريقها ، ويسأل في تعجب واستنكار فيقول : « فإل قوم في
عصور وبلاد مختلفة جحدوا الحياة الروحية وكفروا بفضل
الإيمان ؟ » ثم يغض هيكل بصره على الماديين هذا الجحود لتلك
الحياة ، ويرده إلى خطابهم في فهم الحياة الروحية على حقيقتها ،
وتصويرهم لها تصويراً بعيداً عن الفهم والواقع ، فهم يحسبونها
خارجة على نطاق العقل ، لا تخضع لقوانين العلم في تحليل الظواهر
والمظاهر ، مع أن سبيل الحياة الروحية الصميعة إنما هو الاحاطة
بالعلم في أحدث ما وصل إليه ، واتخاذ وسيلة للنظر في آيات الله
وهي لا تنكر العقل إلا إذا قيد النظر وقيد العقل معه ، ومن ثم
كان الجحود عدواً للحياة الروحية ، ثم يلج هيكل إلى الغاية من
الحياة الروحية وصلتها بالنفوس فيقول : « والناس يستجيبون
بطبيعتهم إلى الدعوة الروحية لأنهم يبتغون الحق بفطرتهم ، ولولا
ما يعد لهم فيه دعاة المادة من أسباب الضلال إذ يغزونهم بمتع
الحياة ولذاتها لانهارت فوارق كثيرة ليس يبقها إلا هذا الضلال
ولتقاربت الأمم بدل أن تتباعد ، ولأخلصت القصد في سميها إلى

السلام بدل أن تجمل من نذر الحرب هياكل عبادتها ، ولكانت
خطا الانسانية في سبيل التقدم ناحية الكمال أسرع وأهدى
سبيلاً ، ولو أن الناس لم يتنكبوا طريق الهدى لتنموا اليوم
بما يلتمسونه من سعادة ، ولعلمهم تنكبوا هذا الطريق لأنهم يمد
في جهالتهم ، ولأن ما بلغوا من العلم لا يزال قاصراً دون هدام
والعلم الناقص داعية الضلال ! » (١)

وهيكل إذ يقول : « إن الناس يستجيبون بطبيعتهم إلى الحياة
الروحية لأنهم يبتغون الحق بفطرتهم » يقرر حقيقة قد قررها
الدين ، وجاء بها الاسلام ، ففي القرآن الكريم « فأقم وجهك
للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها » وفي الحديث الشريف
« كل مولود يولد على الفطرة وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه » ،
وهيكل إذ يرى أنه لولا ما يمدّه دعاة المادة من أسباب الضلال ،
لانهارت فوارق كثيرة ولتقاربت الأمم بدل أن تتباعد . إنما
يرى حقيقة لا تنكر ، بل إنها حقيقة يقررها كثير من أهل
الفكر والثقافة ، وبرونها الملجأ الذي سيلجأ إليه العالم بعد أن
يضنيه وينهكه ذلك النضال المادي العنيف ، ولقد كان من حسن
التوافق أن أقرأ هذا الكلام لهيكل وقد وافقني جريدة الأهرام
وفيها نبأ من لندن يقول : إن اجتماعاً عقد في « هيكل » العاصمة
تحت رعاية جمعية الأديان المتعددة ، وقد أوضحت السيدة الناطقة باسم
هذه الجمعية أن غرضها إيجاد وحدة عالمية بواسطة التفاهم الروحي
وقد تكلم إمام جامع ووكنتج فقال : « إن الوقت قد حان
لجميع الأديان كي تدفن أحقادها ، وتتحد على مقاومة موجة
الكفر التعالية ، والنسك بالأمور المادية في العالم وإهمال الأمور
الروحية ، وقال : إن جميع الأديان تأمر بالمعروف ، وتنهي عن
المنكر ، فهي تشترك في وحدة أساسية ، وهي تنفق على الإيمان
بوجود الله وعلى تجلي الله للإنسانية ، فيجب علينا إذن أن نتفاهم
وليطمئن هيكل وليطمئن إمام جامع ووكنتج . فان ذلك الحلم

الذي لا بد أن يتحقق ، لا أقول سيحققه فرد من الأفراد أو جماعة من الجماعة ، وإنما أقول سيحققه الزمن بسنته وطبيعته وأفاعيله ، وغداً سنرى وإن كنت لا أعلم متى يكون ذلك الند أني القريب أم في البعيد ، ولكنني لست مع الدكتور هيكل إذ يظل جحود الماديين للحياة الروحية بالجهل وتقص العلم ، فإن في الماديين الجاحدين أساطين العلم ، ومن هم في الدروة التي لا تطاول عقلاً وثقافة ، وإنما يرجع هذا الجحود على ما نرى إلى اعتقاد يقوم في أذهان أولئك الناس ، وهو أن العقل كل شيء في الحياة ، لا قول إلا قوله ، ولا منطق إلا منطق ، فمن الواجب أن نخضع لمنطقه كل ما نرى من المظاهر والظواهر ، حتى ما يتصل بميولنا وعواطفنا ، وفأهم أن هناك القلب ، يجب أن نجعل له اعتباراً كبيراً في شؤون الحياة ، إلى جانب العقل ، ويجب أن نعتقد بأن له منطقاً كمنطق العقل إن لم يكن أجمل وأدق ، وهو وحده الذي يشمرنا في رحلة الحياة الشاقة ببرد الراحة ، ويقع من نفوسنا اللامعة موقع الساء المذهب من نفس الصادي في اليهام الفاحلة ، ولا شك أننا لو طأعنا هؤلاء الناس وجعلنا العقل كل شيء لصارت الحياة جحياً لا تطاق ، ولقرردنا من شقاءها كما يفر الناس في هذه الأيام بالموت والانتحار ، بل ولتمردنا على كثير من النظم والأوضاع والشرائع الطيبة الصالحة التي تكفل السعادة للمجتمع ، والتي لا يمكن أن يمجدها الماديون أنفسهم ، وأنت أبقاك الله تأمل في نفسك ساعة وانظر فيما يحف بك من النظم الاجتماعية والقيود الثقيلة التي تربطك بالمجتمع الذي تعيش فيه ، والسلاسل والأغلال التي تثقل جيدك وتنقض ظهرك من واجبات نحو الأسرة والآب والأم والزوجة والوطن والدين والتقاليد وفكرات الشرف والعرض وما إلى ذلك ، واستسلم إلى العقل وحده وأزل على حكمه في تلك الأمور عامتها مجده يجيبك عليها جواباً لا يرضاه العقل نفسه ، لأن الطبيعة قد خصت الإنسان بشيء يمتلك ناصية عقله ويتحكم فيه التحكم كله ، شيء آت من الناحية الروحية القلبية التي هي مصدر المواطف والمشاعر والتي هي مهيمنة عليها ، وإذن فالعقل ليس كل شيء في الحياة كما يزعم الماديون ، وعشاً حاول بعض الفلاسفة أن يجعلوا العقل حد الدين ، وأن يشرعوا للناس المذاهب الفلسفية النفعية ، فنشروا كتباً « في دين الطبيعة » لتأييد مذهبهم ، وموهوا على الناس إذ زعموا أن العلم يتافى الدين ، فوقع الإنسان

في مأزق من مأزق البعد عن الشريعة الأدبية كاد يتداعى معه أساس المدنية ، حاول هؤلاء أن يجدوا في عقل الإنسان وحده هادياً ومرشداً أميناً بصفته فرداً صالحاً من مجموع إنساني ، يختلط له خطة من السلوك والأخلاق جذيرة بأن يحفظ نظام الهيئة البشرية التي يجب أن تقوم على أساس من الإحساس الأدنى ، أخفقوا سعيًا وضلوا سبيلاً ، لأن الطبيعة لم تحب الإنسان بشيء من هذا . رجيع الناس بعد ذلك مؤمنين بأن وازع ما بعد العقلية ، أول عنصر من عناصر المعتد الديني بل نواته ، وأنه الضابط الذي يضبط علاقة الفرد بالجماعة في كل حالة من الحالات (١) ولكن أي لون من ألوان هذه الحياة الروحية يجب أن يختار الشرق حتى يفوز بالناية ؟

يرى بعض المفكرين في مصر أن لون الحياة الغربية هو اللون الصالح ، فراحوا يتقلون للشرق آثار الغرب في ذلك ما وسعهم النقل ؛ وقد كان هيكل على هذا الرأي من قبل ، ولكنه خرج عليه إذ لس فيه الخطأ الواضح ، وهو يتحدث عن ذلك فيقول : « لقد خيل إلى زماناً — كما لا يزال يخيل إلى أصحابي — أن نقل حياة الغرب العقلية والروحية سيبيلنا إلى النهوض ، وما أزال أشارك أصحابي في أنا ما يزال في حاجة إلى أن ننقل من حياة الغرب العقلية كل ما نستطيع نقله ، لكنني أصبحت أخالفهم في أمر الحياة الروحية ، وأرى أن ما في الغرب منها غير صالح لأن نقله ، لأن تاريخنا الروحي غير تاريخ الغرب ، وثقافتنا الروحية غير ثقافته » وبعد أن يكشف عن وجه الفرق في ذلك يدل على اللون الصالح للشرق من الحياة الروحية ، وهو في كلامه يتحدث عن خبرة وتجربة فيقول : وقد حاولت أن أقبل لأبناء لغتي ثقافة الغرب المعنوية والروحية لتتخذها هدى ونبراساً ، لكنني أدركت بعد لأي أنني أضع البذر في غير منبته ، ورأيت أن تاريخنا الإسلامي هو وحده البذر الذي يثبت ويشمر ، ففيه حياة تحرك النفوس وتجعلها تهتز وتربو ، ولأبناء الشرق في هذا الجيل نفوس قوية خصبة تنمو فيها الفكرة الصالحة لتؤتي ثمرها بعد حين وهذا كلام أصاب فيه هيكل شاكلة الصواب ، وشرحه شرحاً وافياً كافياً في منزل الوحي ، فجاء كتابه صفحة روحية مشرقة ، وفكرة صالحة يجب أن يطلوها أبناء الشرق لتنمو في نفوسهم ، فتؤتي ثمرها الطيب محمد زهير عبد اللطيف